صور من الشعر الحديث في العراق

للاستاذ ابراهيم الوائلي

تمهيد :

كانت بداية النهاية في كانون الثاني « يناير » من السنة ١٢٥٦ حين هاجم هولاكو أسوار بغداد ولم يقدم له عرض الصلح الذي تقدم به ابن العلقمي وجاثليق النصارى .

وفي اليوم العاشر من شهر شباط « فبراير » من السنة نفسها استيقظت بغداد فإذا بها أمام تيار عارم لا يقف عند حد ولا يريد ان يقف عند حد . تيار من الوحشية التي تستعذب دماء الناس وتستمرئ لحومهم وإذا بالسيف والنار يقدمان لهذا الجائع موائد من الدماء واللحوم يدوسها بأقدامه ضاحكا ساخراً . والناس من أهل بغداد وما جاور بغداد حيارى واجمون يعصف بهم الرعب ويجرفهم الخوف وتشتد بهم العاصفة من كل جانب فلم يجدوا بدا من أن يودعوا خليفتهم الذي استسلم وخضع . ومجدهم الذي توارى واحتجب وحريتهم الاسلامية التي انتهكت وأهينت . ولم يجدوا بدا من أن يستقبلوا فاتحاً متغطرساً سفاكا مستبيحا ، كل ذلك على مضض منهم وكره . واستسلمت بغداد لحد السيف وأسلمت ترابها لألسنة النار وأمواج النهر ، تلك تلتهم وهذه تبتلع ، وانطوى العصر الذهبي بمجده وعظمته فلم يعد التاريخ يسمع غير الهمسات الخفيفة والنأمات العابرة والصدى المبحوح وحتى هذا الصدى أخذ يختنق تحت وطأة العجمة الطاغية والوحشية الحمقاء . ولوحقت اللغة العربية وآدابها في كل مكان وطوردت في كل مرفق تجتث أصولها وتشذب فروعها وينرس مكانها الجهل والعماية .

وبقيت بغداد وسائر المدن العراقية تغط في نومة طويلة أحقابا وسنين سماها المؤرخون « الفترة المظلمة » ولم يخطىء المؤرخون في هذه التسمية فقد كانت هذه القرون التي مرت على العراق زاخرة بالجهل والتأخر والانحطاط والانتكاسة العميقة فلا عدل ولا إصلاح ولا أدب ولا دراسة ولا تعليم ، الإخيال باهت يلوح بين جدران المساجد والبيوت في بعض الحواضر العراقية ، والا لمحات قليلة لا تقع من تاريخ الأدب الصحيح على مكان إذا استثنينا العلوم الدينية والتاريخية التي لم تركد كل الركود . بالرغم من ذلك كله فإن اللغة العربية في العراق بقيت تصارع وتكافح فتهدأ حينا وتثور أحيانا أخر ، تكافح عدوا عنيدا لا يكتفي بما يبتزه من خيرات ومنافع بل يحاول القضاء على هذا الطابع الذي تعتز به الأمة — وطابع كل أمة لغتها كما يقولون — وكانت هذه اللغة تدرس وتقرأ ولكن في نطاق ضيق محدود ، ويجد من يحدب عليها ويرعاها ولكن في مجال غير فسيح ؛ فبعد أن كانت بغداد هي مركز العصب الحساس للغة العربية وآدابها أصبحت في هاوية بعيدة القرار من غفوة الزمن ، وبعد أن كانت البصرة في مربدها والكوفة في منبرها تنتجان وتتباريان أخلدتا إلى السكون والدعة ، ولم يعد التاريخ يسجل للعربية علما وأدبا إلا القليل مما تنتجه بعض المدن كالحلة والنجف والموصل وكان هذا الانتاج بين تأليف لا عمق فيه ولا دقة ، وشعر لا عاطفة فيه ولا تصوير ، ونثر تشمئز اللغة من تراكيبه وأسلوبه ، يجرف ذلك كله تيار من التقليد والمحاكاة . تقرأ للشاعر فلا تقع عينك في ألفاظه إلا على الطلول والدمن ، ولا تهم معه إلا في حاجر وذي سلم ، وهو بعيد عن ذلك في بيئته وحياته الاجتماعية . وتتطلب معانيه فلا تجدها إلا وهي باهتة خابية لا حياة فيها ولا حركة ما عدا شعراء قليلين كان لهم نصيب من الشعر الجيد .

حتى إذا جاء القرنان الثاني عشر والثالث عشر للهجرة أخذ الشعر يتمطى بعد غفوة ويصحو بعد رقدة ، ولكنه لم يستطع أن يزيل عن جسمه غبار السفر البعيد أو يتخلص من بقايا التعب فلم يسلم من تبعات التصنع والتقليد . ومن أشهر شعراء هذه الحقبة كاظم الازري ثم العمري والأخرس وحيدر وجعفر الحلياني ، والسيد الحبوبي وغيرهم كالشيخ جواد الشبيبي والشيخ جعفر الشرقي . وكان هذا العصر إيذانا بعصر جديد وبنهضة شعرية جديدة نشط فيها الشعر وتحلل من القيود الصناعية والزخرف اللفظي ، وانطلق من عقال التقليد في أغراضه ومواضيعه وفي أخيلته ومعانيه فواكب السياسة في ادوارها المختلفة وسائر المجتمع

فى تطوره ودعا إلى الاصلاح والتحرر ومقاومة الاستعمار.

هذه النهضة الشعرية المباركة تلتقى عندها عوامل عدة وتقف إلى جانبها أسباب كثيرة ، منها ما هو داخلى يعود إلى البيئة والطبيعة والثقافة المحلية ، ومنها ما هو خارجى يعود إلى الاستعمار الذى خيم على العراق فحرك نفوس الشعراء ، وإلى النهضات العلمية التى بدأت تنمو فى مصر وسـوريا ، والصحافة العربية فى هذه البلدان بما كانت تنقله من وعى وتنشه من علم وأدب .

فالبيئة العراقية حساسة ثائرة ، والطبيعة متقلبة متحولة : شتاء قاس ، وصيف شديد، وربيع معتدل قصير العمر ، وخريف عارم كثير الرياح والزوابع ، وأنهار تكاد تجف فى الصيف وتطغى فى الشتاء والربيع ، وصحار خاوية لانبت فيها ولا ماء ، ومروج خضر تمتد بامتداد البصر . هذه الطبيعة بألوانها وصورها وخيرها وشرها معرض يطوف الشاعر فى أرجائه فيتأثر وينفعل ثم يغنى انفعالاته قصائد تحكى هذه الطبيعة وتصور انقباضها وانبساطها وسكونها وثورتها وكل ما فيها من مختلف ومتشابه .

***

وأما الثقافة المحلية فقد كانت فى حدود الدين واللغة العربية فى كتبها الصفر وفى بقايا من التراث العباسى يستقى من مخطوط قديم أو من مطبوع جاءت به المطابع الهندية والايرانية وندت به المطابع التركية إلى جانب ما تنتجه المطابع السورية والمصرية والعراقية فى ذلك العهد ولا شك أن هذا الانتاج كان محدودا قليلا ، لذلك كانت الثقافة العراقية فى أواخر القرن التاسع عشر لاتتجاوز الأفراد متفرقين فى بغداد والحلة والنجف والموصل؛ حتى إذا أخذت الطباعة تنتشر والمطبوعات تتيسر أخذ الأدباء العراقيون يتسابقون إلى اقتناء الكتب العربية القديمة واستيعابها والأفادة منها فتجاوز الأدباء حدود الأفراد وكثر الشعراء على ضفاف الرافدين ، وكانت الذهنية العراقية تدفع الشاعر والأديب إلى التمحيص والاختيار فلا يقرأ الغث ولا يحفل بالردىء. هذا إذا كان الشاعر موهوبا قد هيأته الطبيعة وكونت فيه عنصر الشاعر تكوينا سليما، لذلك كان الشعر العراقى فيما مر من القرن العشرين صافيا مشرق الألفاظ مركز الاداء إلى جانب معانيه الدقيقة وأخيلته السامية .

والاستعمار الخارجى كان يتمثل آنذاك فى سلاطين آل عثمان وولاتهم ضباطهم وجنودهم يحكمون دنيا العراق السخية ويبتزون خيراتها ويفرضون اتاوتهم على كل إنسان بالقوة والسوط ويجندون ابناء العراق لحروبهم ومعاركهم ، ومن يقعد عن الجندية يدفع البدل المرهق الذى تفرضه السلطات كما تريد، وتذهب هذه الخيرات إلى ليالى البسفور والدردنيل وإلى قصر يلدز وغيره . وبقى العراق رازحا تحت وطأة البؤس والفاقة والأمراض والطواعين . وكان من جراء ذلك أن انتشر الرشوه وكثرت الاقطاعات بأيدى نفر من الزعماء يمالئون الولاة والحكام لتسلم لهم إقطاعاتهم ونفوذهم . هذه الصور والألوان يستعرضها الشاعر العراقى كل يوم فيتأثر وينفعل ويثور ويردد ثورته فى قصائد يقذف بها كالحمم الملتهبة .

وأما الصحافة — ونعنى بها الصحافة التركية والعربية فى مصر وسـوريا — فقد كانت ذات نصيب كبير فى إيقاظ الشعر العراقى ونهضته بما تحمله من العالم الخارجى وبما تتحدث عنه من تقدم ووعى فى الأمم الأخرى وفى الشعوب العربية كمصر وسوريا؛ ففى مصر كانت النهضة قد نشرت اجنحتها وتناولت معظم المرافق والحقول ، وفى سوريا كان الوعى القومى قد رسخت قواعـده وتركت مبادئه نتيجة لاحتكاك العقلية السورية بالنتاج الفكرى الغربى وكان الأدباء العراقيون على صلة بهذه التيارات يتبعونها ويتطلعون إليها ويقرؤن ما يصل إليهم باستيعاب ورغبة فيحسون نهضة العالم ويشعرون بما فى البلاد العربية من يقظة وتوثب، ويتألمون لما فى العراق من تأخر وتخلف ، وليس العراق بأقل من غيره قابلية للنهوض والتقدم فلا يلبثون حتى يرددوا ألمهم أناشيد تشيع هنا وهناك فيرن صداها قبولا واستحسانا فى دنيا العراق، وسخطا وحنقا فى قصور المستعمرين وكان لابد لهذه الأناشيد من منابر تذيعها على الملأ وهـذه المنابر هى بعض الصحف التى تصدر فى العراق ، ولكنها كانت تضيق فى معظم الأحيان عن نشر هـذه الصرخات المدوية حذرا من الولاة والحكام، وما تضيق عنه هذه الصحف تتناقله صحف مصر وسـوريا آنذاك فيذيع فى الأقطار العربية ومنها العراق .

بهذه العوامل وغيرها اندفع الشعر العراقى إلى مواكبة العصر الحديث وتصوير آلام المجتمع والدفاع عن حرية العراق والبلاد العربية عامة .

بعد التمهيد الذي قدمناه نحب أن ندرس ثلاثة من شعراء العراق في العصر الحديث وهؤلاء الثلاثة هم الكاظمي والزهاوي والرصافي ندرسهم في مجال الشعر السياسي فقط، وفي عهد الاستبداد الحميدي وبعد إعلان الدستور فحسب؛ ثم نشير إلى مواقفهم الايجابية من العثمانيين والظروف التي دعت إلى ذلك. وقبل أن نتحدث عن هؤلاء الشعراء نحب أن نشير بايجاز إلى تاريخ الدستور العثماني.

لعل الرجل الوحيد الذي شغلته فكرة الدستور وناضل من أجلها هو مدحت باشا الذي نفاه عبد الحميد إلى الطائف من الحجاز وسجن هناك ثم اغتيل في العاشر من نيسان «ابريل سنة ١٨٨٣م.»

وكان مدحت هذا ثمرة طيبة ندت بهـا تلك الشجرة المرة فاشتغل بالسياسة وتقلد مناصب كبارا في أوربا وسوريا والعراق. وقد ساءه أن يرى الجهاز الحكومي في تركيا يسير على غير انتظام، والولايات التابعة للحكومة العثمانية ترسف في أغلال العبودية والذل وتدفع الأتاوات لحكام جائرين، ففكر أن يضع حداً لهذا الاستبداد. كان ذلك أيام حكم السلطان عبد العزيز، والصدر الأعظم محمود نديم، وشيخ الاسلام حسن فهمي. وكل واحد من هؤلاء لا يبالي من أين جاء المال وبأي وسيلة يجمعه. وفي مظاهرة كبرى قام بها مدحت على رأس جمهور كبير هتف المتظاهرون بسقوط الصدر الأعظم وشيخ الإسلام فلاذا بالفرار. وطلب المتظاهرون إسناد الصدارة إلى مدحت فاكتفى السلطان بتعيينه وزيراً بلا وزارة، ولكن المفكرين وعلى رأسهم مدحت لم يكتفوا بذلك فألحوا بوضع الدستور الأمر الذي نتج عنه عزل السلطان عبد العزيز ومبايعة ابن أخيه السلطان مراد سنة ١٨٧٦ م. وفي هذه السنة انتحر عبد العزيز وجن مراد وانهارت قواه العقلية بعد اعتقال طويل وتألم مدحت لهذا الحادث فاتصل بعبد الحميد ولي العهد فوعده بالغيرة على الدستور — إن ولي السلطنة — وبالتنازل عن العرش إن استعاد مراد قواه العقلية، وأسند الملك إلى عبد الحميد. غير أنه بعد أيام قليلة بيت الغدر لمدحت ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً بسبب الحوادث التي جدت في أوروبا والتي اضطرته إلى استشارة مدحت في أمر الدستور. وفي ٢٤ أيلول «سبتمبر» سنة ١٨٧٦م تألفت لجنة من الوزراء والعلماء والقادة فقررت تأليف مجلس للشيوخ وآخر للنواب وشرعت تدرس مواد الدستور، وأسندت الصدارة العظمى إلى مدحت في ١٩ تشرين الأول «اكتوبر» من السنة نفسها وقوبل هذا التعيين باغتباط عظيم في تركيا والبلاد الخاضعة للنفوذ العثماني لما كانت تنتظره من إصلاح على يد مدحت؛ ولكن عبد الحميد أخذ يضع العراقيل في طريق مدحت ويسوف باعلان الدستور فلم يكن من مدحت إلى أن هدد بالاستقالة قائلا في خطاب له:

«إننا لم نخلع السلطان عبد العزيز إلا طمعاً في الوصول إلى هذه الغاية المقدسة» ومن ثم اضطر عبد الحميد إلى إعلان الدستور وأصدر إرادته بهذا في يوم ١٢ من كانون الثاني «يناير» سنة ١٨٧٧ فأطلقت المدافع ابتهاجاً بهذا الحادث العظيم وأعلن الشعب فرحه وسروره لأن الأمة أصبحت مصدر الحكم ولها الحق في ممارسة شئونها الداخلية والخارجية. وأخذ مدحت يعمل على تنفيذ مواد الدستور ويسترضي جميع الطوائف والطبقات؛ ولكن عبد الحميد أحس بخطر مدحت، وخشي أمر بنفيه إلى أوروبا بتهمة الخيانة العظمى وكان إذ ذاك في حدود الخامسة والخمسين فثار الأحرار والمفكرون لهذا المآل وكثرت المظاهرات احتجاجاً على مصير مدحت فلم يطل مكثه في أوروبا وأعيد إلى الشرق والياً على سوريا بينما كان عبد الحميد ينكل بأتباع مدحت ويبعد عن الأستانة كل من شارك في أعمال الدستور. وكثرت الاضطرابات حتى وقعت الدولة التركية بين مطامع الانجليز والروس وانتشر المبشرون والأوربيون في الساحل السوري وفي فلسطين. وثار مجلس النواب مطالباً بمحاكمة محمود نديم الصدر الأعظم فغضب عبد الحميد وأصدر أمره بحل المجلس النيابي وإلغاء الدستور وذلك في ١٣ شباط «فبراير» سنة ١٨٧٨ م ثم أرغم على إعادته سنة ١٩٠٨ م وفي فترة الثلاثين سنة بين الإلغاء والإعادة كان عبد الحميد يترع على قمة الاستبداد فنفى كل وطني غيور، وقضى على كل ضمير حر، ولم يبق معه إلا شرذمة من خشارة الأدنياء والمنافقين يتقلبون في المناصب بينما كانت الأمة تتدهور حالتها والبلاد العربية وبخاصة العراق — تقاسي كل ألوان الفقر. وانعدمت الحرية في كل مكان وكثر الأرصاد والجواسيس يتعقبون كل جمعية ويتابعون كل قائلة، وغصت السجون بالأبرياء وضرب نطاق من حديد على المطبوعات والصحافة والبريد.

وأخيراً استدعي مدحت إلى المحاكمة وحوصر قصره بأزمير